الباب الأول

تمهيدى

إشكالية نظريات التفسير

obeikandi.com

الفصل الأول

الموقف النظرى فى تفسير الأدب [1]

١ ـ تجتاز مناهج الدراسات الأدبية فى صورتها الحالية تطورات جديدة تشبه تلك التطورات التى إجتازاتها فى أواخر القرن التاسع عشر، ووجه الشبه بينهما هو هذه النظرة الوضعية التى تحلل نمطاً عريض من أنماط الأدب، على ضوء مفاهيم ومناهج العلوم الإنسانية والتجريبية. والباحثون منقسمون فيما بينهم تجاه هذه النظرة الوضعية. فهناك فريق يرى ضرورة تحليل الآثار الأدبية تحليلاً عقلياً ويرى أيضاً ضرورة أنشاء علم مستقل للأدب وفريق آخر يرى أن هذه النظرة الوضعية تقضى على خصوصيته، وتحيله إلى أجزاء مفتتة. ويجب الأعتراف مع أعضاء الفريق الأول بأهمية النظرة الوضعية فى تحليل الأدب، ولكن دون القضاء على وحدة نظامه وعناصره المتماسكة، فبعض هذه الدراسات المعاصرة تقوم بإجراء تحاليل جزئية من أجل الوصول إلى نظرة كلية مجردة ويظهر أثر ذلك بوضوح فى الإتجاه البنائى والإتجاه الصورى أو الشكلى حيث نستطيع أن نلمس ذلك فى مناهج دراستهم عامة، ومفاهيمهم النظرية خاصة. ويظهر هذا التحليل الجزئى فى إهتمام الباحث بالأنساق اللغوية أو الشكلية دون سواها.

تلك المظاهر ـ وقد أوردناها مبسطة موجزة ـ هى مظاهر الإتجاه العام لمناهج الدراسات الأدبية المعاصرة. لكن ما هى الدراسة الأدبية؟ يجيب «ويليك» بأنها ـ أن لم تكن بالضبط علماً فهى نمط من أنماط المعرفة تنهض على مجموعة من الأسس العقلية التى يتبناها دارس من الدارسين للوصول إلى فهم وتفسير ظاهرة من الظواهر الأدبية. ويمكن الأخذ بهذا التعريف دون ما حاجة إلى تشتيت الحديث فى

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إلى مصادر الدراسة فى الملحق المشار إليه فى نهاية الكتاب.

مناقشة «رولان بارت» R. Barthes فى تفرقته بين الدراسة الأدبية والنقد الأدبى، فإن هذه التفرقة لا تمس فكرة الأسس العقلية التى يبرزها التعريف السابق بقدر ما تمس مسألة التميز بين النقد الأدبى والدراسة الأدبية. وهذه المسألة لاتبدو من وجهة نظرنا على جانب كبير من الأهمية، لأن محاولة التفريق بينهما لا تتعارض مع فكرة الربط بين عنصرى فهم وتفسير الأثر الأدبى، من حيث أنهما الغاية الرئيسية لكل من النقد والدراسة الأدبية فالناقد قد أصبح يقوم بدور الباحث والباحث أصبح يقوم بدور الناقد فكلاهما يسعى إلى الكشف عن القانون الداخلى لنظام الأثر الأدبى من جهة، ومدى صلته بغيره من الظواهر من جهة أخرى. ويمكن أن يكتفى الباحث أو الناقد بفهم دلالات الأثر الشكلية دون محاولة ربطها بغيرها من الدلالات أو البنيات الخارجية أو يأخذ بكل المفهومين فى وقت معاً. فيحاول منذ البداية أن يحدد المميزات الخاصة، للأثر أو الظاهرة، ثم يحاول أن يوضح وظيفة هذه المميزات عن طريق دمجها فى إطار كلى واسع. وما دامت الدراسة الأدبية تود الوصول إلى هذا الفهم أو ذاك التفسير، فالقول بأن مناهج الدراسة تواجه تطورات جديدة مما أدى إلى تغيير وظيفة هذه الدراسة من حيث أن هذه الدراسة مظهر من مظاهر الصلة بين الأدب ونهضة العلوم الإنسانية واللغوية. هذا القول لا يعنى أكثر من أن نظرة الباحث أو الناقد التى كانت تعتمد على أسس منهجية معينة هى بسبيل تغير هذه الأسس.

فمناهج الدراسة الأدبية فى المرحلة الراهنة تمضى الآن نحو منطلق جديد. والواقع أن ظهور تطورات جديدة فى حياة الفرد والمجتمع يؤدى إلى تجديد فى الفن والأدب، وهذا يفرض على الباحث أو الناقد نظرة جديدة تسمح له بالتكيف مع الواقع الأدبى الجديد. يحدث هذا للباحث فى مجال الدراسة الأدبية كما يحدث للباحث فى مجال العلوم الإنسانية، غير أنه يحدث بصورة مختلفة فى مجال المعرفة والفكر كل حسب طبيعة مجاله. فأحياناً يشمل العلوم الإنسانية ثم الإتجاهات الأدبية والفلسفية معاً كما حدث فى بداية هذا القرن وكما يحدث الآن. فالتغير فى بنيات المجتمعات الحديثة، يلزم العلوم أن تتكيف مع هذه التغيرات تكيفاً قد يقتضيها التغير فى معظم أو فى بعض أجزاء عناصر مناهجها وأساليب بحثها.

هذا النمط من التغير هو الذى يحدث الآن للمجتمعات الحديثة، سواء فى بنياتها الثقافية، أو فى بنياتها المادية، كما يحدث فى حياة الأفراد والجماعات، الأمر الذى يجعلها تضطر أن تغير سلوكها ونظرتها للعالم، وتحاول التكيف مع بنيات عناصره الجديدة. وأنا لنشهد ذلك بوضوح فى تلك النظرة الجديدة للعالم التى فرضت نفسها على الفرد المبدع، فظهرت بصورة معينة فى شكل أنساقه اللغوية والفنية. ولكن هذه النظرة الجديدة للعالم، وطريقة التعبير عنها، يأبى بعض النقاد والباحثين الأعتراف بها، والعمل على التكيف معها فكرياً وتاريخياً، ويفضلون التشبث بالمناهج التقليدية. وفريق آخر من النقاد والباحثين يمضون قدماً مع التطور محاولين أن يجددوا مناهج أعمالهم كى تتلائم مع الواقع، وبذلك يصبحون هم أنفسهم جزءاً من هذا الجديد ويضطرون إلى إعادة النظر فى أطرهم النظرية وفى تنظيمها لمواجهة الواقع الأدبى الجديد.

ومن الطبيعى أن تسود المرحلة الراهنة مظاهر إعادة النظر فى الأطر النظرية مادامت هذه المرحلة تتميز بالتغير السريع. وفى إستطاعتنا أن نعتبر تطور مناهج العلوم الإنسانية والتجريبية مظهراً من بين هذه المظاهر. وقد نرى مظاهر أخرى تدل على وجود نظرة جديدة للأدب، وفى محاولة دراسة الآثار الأدبية دراسة عقلية، أمثلة واضحة على ذلك. فهى ذات سمة بارزة تميزها عن الدراسة الأدبية السابقة، ألا وهى تحليل الأثر تحليلاً يعتمد على مبدأ العزل الشائع فى مجال العلوم التجريبية. والأخذ بهذا المبدأ يؤكد ظاهرة التجديد فى مناهج الدراسة الأدبية. ومن مظاهر ذلك التجديد أيضاً إعتبار الأثر الأدبى بمثابة واقعة أنثروبولوجية، وليست واقعة تاريخية. أو إعتباره تعبيراً عن رؤية متماسكة للعالم.

ويرى فريق ثالث ضرورة دفع الدراسة الأدبية نحو المفهوم النفسى، ليكشف عن جانب النفس اللاشعورية للكاتب، عن طريق تحليل الأستعارات أو الكنايات المضمرة فى بنيات الأثر نفسه.

ولكن، إذا كانت العبرة بالأفعال لا بالأقوال، فهل حققت هذه الحركة الأدبية تغيراً فى النظر إلى الأدب وفى كيفية معالجته؟

الجواب على ذلك بالإيجاب .

فالأوساط الجامعية ، ومراكز البحوث الإنسانية التى تضم أعداداً كبيرة من الباحثين فى الغرب ، قد أخذت بهذه المفاهيم وبتلك المناهج . نذكر من بينهم على سبيل المثال : جاك لنهاردت فى فرنسا ، وشارل كاستيلا فى سويسرا ، وسامى ناير فى بروكسل ، والبرخت فى ألمانيا وغيرهم من الباحثين الذين ينضمون تحت لواء هذه الحركة العلمية الجديدة .

وليس المهم هنا أن نحكم لهذه الحركة أو عليها . وأنما المهم أن نبين من خلال هذا العرض الموجز ، تلك السمة المميزة لها ، ألا وهى محاولة خلق تآلف مشترك بين مناهج الدراسة الأدبية ، ومناهج العلوم الإنسانية والتجريبية .

٢ ـ ولئن كانت هذه المناهج فى متناول النظريات الأدبية ضرورية ، ولاغنى عنها ، فإن ضرورتها فى حالة الإتجاهات الجديدة ، تبدو أوضح وأشد لزومًا ، ذلك أن الصلة بينهما وبين الظروف الحضارية والثقافية التى أحاطت بظهورها وأنتشارها من البروز ، بحيث لا تحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب ، بل هى تفرض نفسها علينا كحقيقة واقعة ، وما علينا إلا أن نحاول إستخلاص منطق وجودها .

ولسنا نقصد بالحديث هنا سوى النظرة الوضعية الجديدة التى أنتشرت فى الدراسات الأدبية الراهنة على أيدى طليعة من الباحثين ، والتى لقيت قبولاً لدى عدد كثير من المثقفين العرب ، ما لم تكد تلقاه أية حركة علمية أخرى .

فإذا نظرنا إلى هذه الحركة من خلال هذا الإطار التاريخى ، أمكن أن نعرف كيف أنها إحتجاج ضد النظرة التقليدية والطرق العشوائية فى دراسة الأدب خاصة ، ودفاع عن النظرة التعقلية للفكر والثقافة عامة .

وأصحاب هذه الحركة يعالجون الظاهرة الأدبية على ضوء فكرة أساسية مؤداها أن العلوم الإنسانية والتجريبية تتيح للباحث أن يدرك الظاهرة ، وأن يسبر غورها ، عن طريق أستخدام مناهج هذه العلوم من جهة ، ومناهج الدراسة الأدبية من جهة أخرى .

ومن الجلى أن هذا الفهم يؤكد على عملية التفاعل الدينامى بين مفاهيم ومناهج العلوم الإنسانية من جهة وخصائص الظاهرة الأدبية جهة أخرى ـ فالأثر الأدبى ـ مهما تعددت أجناسه ـ هو محصلة التفاعل بين الجانب اللغوى، والسيكولوجى والسوسيولوجى والتاريخى. . إلخ.

وجملة القول، أن النظرة الجديدة للأدب، نظرة جديدة للحياة والعالم، ولطبيعة العلاقات بين الفرد المبدع والأثر، أو بين الأثر والعالم.

فتلك الحركة الأدبية تبدو ثائرة على مناهج الدراسة التقليدية. ومن هنا قلنا إنها حركة علمية ذات نزعة وضعية جديدة تعبر عن إتجاه فريق من المفكرين والباحثين الذين إستطاعوا الأعتراف بتغيرات البنيات الثقافية والعمل على التكيف معها فى صورتها الجديدة، فأثروا الطرق العلمية على الطرق العشوائية فى فهم دلالات الأدب والسبر فى غور ابعاده.

ومن البديهى، أن تلك الإتجاهات والمناهج المعاصرة لدراسة الأدب تضم ميادين عدة، منها البنائى الشكلى والبنائى الدينامى، والبنائى النفسى والتفكيكى وغيرها. ومن البديهى أيضاً إننا لا نستطيع أن نغض النظر عن هذا التقسيم، ونتحدث عنها بصفة عامة، لذلك رأينا أن نقصر موضوع دراستنا على المنهج البنائى الدينامى السوسيولوجى، والمنهج الشكلى، والمنهج التاريخى. ثم نتحدث من المنهج البنائى الشكلى والنفسى. والمنهج التفكيكى فى جزء آخر مستقل عن هذا البحث.

على أن كلمة منهج، كلمة واسعة بعض الشىء، فهى مقصورة أحياناً على الطريقة التى يعالج بها الباحث أو الناقد موضوعه. لكنها تتسع فى أحايين أخرى حتى تشمل كل البناء العلمى الموجه، نحو تفسير ظاهرة أدبية معينة. على ضوء فرض أو فروض معينة، للوصول إلى الأسس العامة التى تنظمها.

ويهمنا فى هذا التعريف الإشارة إلى دور الفروض بإعتبارها جزءاً جوهرياً يوجه الباحث أو الناقد فى عمله على ضوء فلسفته المستمدة من فلسفة العلوم الإنسانية والنظرية الأدبية فى وقت معاً.

على أننا لا نبحث هنا عن تعريف للمنهج نرتضيه، فربما كانت هذه المحاولة فى هذا الوضع المبكر من الدراسة ضرباً من المصادرة غير المقبولة. فإذا كنا قد قصدنا هذه التعريف فى البداية فليس ذلك سوى دفعاً لعدم التشتت، وتحديداً للملامح العامة للمناهج التى نبحث فيها.

obeikandl.com

- 1 -

المراجـــــع

- Escarpit, R., la litteraire et social, Paris, 1970.
- Goldmann, L., Sciencesbhumaines et philosophie, Paris, 1964.
- Machry, P., pour une theorie de production litteraire, Paris, 1964.
- Wellek, R., theorie de la litterature, Paris, 1960.

obeikandl.com